انه يعكس المعادلة الكتابية العربية* من قلق الوجود الى قلق الكتابة الملتزمة. ولعل هذه الحياة القصيرة والتي هجس غسان بقصرها في مذكراته (أنظر: يومياته) هي المحرض الفعلي على غزارة هذه الكتابات وتوجهها الى مسارها الصحيح.

ان غسان، في كتاباته التي تتناول قلق الوجود البشري، مسكون بحالة الفلسطيني في منفاه، وهو لا يبتعد عن تصوره المتبلور في رواياته وقصصه... فالسياسة هاجسه في مسرح وجودي يبحث عن حل شخصي في عالم جماعي. «انكم تخسرون دائماً لأنكم تبدأون، دائماً، من البداية»(١٦). في منطوى هذه الكلمات، يلح وعي غسان للثورات الفلسطينية المتتالية على نقد الحالة الثورية ومسارها.. وهو في تركيبه الرمزي ــ الوجودي لمسرحيته، بين التساؤل الوجودي في «الباب» وبين حلم الثورات في الاستفادة من خبرة متراكمة... وهذا النقد مبثوث في أعمال مختلفة... وهو، كما يبدو، المنطوى الأساسي لنقده المنصب على ثورة عام ١٩٣٦، بالاضافة الى مجموع تصوراته السياسية لحركة المقاومة الفلسطينية أساساً.

كتابة غسان هي نافذته على العالم، ووعيه الكتابي السياسي هو رؤيا جماعية لقضية شعبه الفلسطيني.

فلسطين هي العالم

تنزع كتابات غسان الروائية والقصصية الى الانصباب في دائرة الهم الفلسطيني في معطياته التاريخية والسياسية ــ الاجتماعية، وتتطور من الكتابة في منطوقها الوجودي والانساني الشامل، الى كتابة وعي سياسي فلسطيني خاص ينبعث من خصوصية التجربة الفلسطينية واشكاليتها القائمة على الأرض والانسان... ولكن هذه التجربة الكتابية التي تقول ان «فلسطين تمثل العالم برمته...»(١٧)، لا تنسى أن الكتابة الطالعة من حقل خصوصيتها، خصوصية التجربة، تجربة الفرد وتجربة الشعب الفلسطيني على أرضه وفي منافيه، لا تبتعد بالكاتب إلا «ليمسك بقضيته وانسانها ليلامس بها التجربة الانسانية الشاملة»(١٨). ومن هذا المنحنى يسجل غسان في أعماله تجربة الذات الفلسطينية في بحثها عن خلاصها، من خلاص الفرد الى خلاص الجماعة؛ اذ تتطور هذه الكتابة في رواياته: «رجال في الشمس»، «ما تبقى لكم»، «أم سعد» و«عائد الى حيفا»، من مرحلة الوعي الفردي لمشكلة وجود فردي ينتزع ويسحق، الى مشكلة انسحاق الذات الجماعية وانتصارها على هذا التحدي. من «رجال في الشمس» التي تختزل الذات الفلسطينية في أربع شخصيات رئيسية مهزومة من داخلها، باحثة عن خلاصها وكسبها الفردي، تنطلق أولى بذور الأثر الروائي الكنفاني لبحث الذات واستبصار الهوية الفلسطينية، وفيها يتجسد انسداد الأفق أمام حل فردي... ان الانهيار أمام حائط الهروب والموت داخل الخزان، هو التطور نحو رواية نهوض الذات الجمعية الفلسطينية في بحثها عن خلاصها، وهو ما حققه غسان في رواية «ما تبقى لكم» في وقت مبكر نسبياً عام ١٩٦٦ لمعالم تبلور

---

* نقصد بذلك مجموعة كبيرة من الكتاب والروائيين العرب بدءاً من نجيب محفوظ وانتهاءاً بيوسف ادريس.